الإسلام والحوار*

أ. محمد الصغير بن لعلام[1]

بادئ ذي بدء أود أن أوضح وأبين أن هذه الدراسة المختصرة تُعنى بموقف الإسلام من الحوار منذ فجر دعوته، أي من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لكي يعلم الجميع ويتبينوا أن هذه "المقولة" ليست بنت العصر أو من ابتكار الآخرين، وإنما هي من أبجديات الإسلام منذ بدء الدعوة.

ولقد كثر الكلام في السنوات الأخيرة وتشعب فيما اصطلح على تسميته "بحوار الحضارات" أو التقاء الأديان أعني "الإسلام والنصرانية واليهودية" وخاض في هذا الموضوع كل من شاء الخوض، من أجهزة الإعلام بمختلف أنواعها من مقروء ومسموع ومرئي، ومن رجال فكر ودين ومن منظمات عالمية مثل "اليونسكو" وحتى بعض رجال السياسة من رؤساء وملوك... إلخ، وقد اشتّد أوار هذا الكلام وعلا ضجيجه بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 الذي هزّ كيان الولايات المتحدة الأمريكية والعالم الغربي بأكمله، فالدنيا قد

*. هذه المقال كتبت قبل غزو العراق.

1. إطار سام في وزارة الشؤون الدينية سابقا، نشر عدة دراسات في الثقافة الإسلامية.

قامت ولم تقعد بعد، وكان من شدة هول ما حدث أن فقد كثير من الناس في الغرب اتزانهم وضاع صوابهم، سياسيين منهم ومفكرين وإعلاميين وحتى بعض رجال الدّين، وكانت فرصة لهم ليبوحوا بضغائنهم ويكشفوا عن حقدهم على الإسلام والمسلمين، فأخذوا ينشرون تهديداتهم يمينا وشمالا، ولكن فئة أخرى منهم أكثر اتزانا وتعقلا وإدراكا وفهما للإسلام على حقيقته أنه دين التسامح والأخوة والمحبة والسلام، وليس دين عنف وإرهاب وقهر. هذه الفئة أضحت أكثر عزما وأكثر تصميما وجدية للعودة إلى طريق الحوار لأنه الطريق الوحيد الذي يزيل العقبات ويقضي على الشكوك والمخاوف، وتوج مسعاهم هذا بإقامة صلاة في إيطاليا اشترك فيها رجال دين من الديانات السماوية الثلاثة.

والذي يهمنا نحن في هذا العرض الوجيز هو أن نبين أن الإسلام كان منذ بزوغ فجره يسعى إلى الحوار ويدعو بالتي هي أحسن، بل أكثر من ذلك، فإن المسلمين الأولين كانوا يحسون بأن هناك رابطة متينة تربطهم بأهل الكتاب من اليهود والنصارى لأنهم أهل إيمان وتوحيد مثلهم، لهذا فإنه لما ضاقت بهم السبل في مكة أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى الحبشة لأن فيها ملكا مسيحيا يؤمن بالله مثلهم، كما أن المشركين والكفار تربطهم رابطة الشرك بمن هو مثلهم والشرك والكفر واحد مهما كان الزمان والمكان. وقد سجل لنا القرآن صورة واضحة جلية لما ذكرناه في سورة الروم إذ كانت الحرب قائمة بين الفرس والروم، وكانوا مشركو مكة يرجون الانتصار للفرس لأنهم مشركون مثلهم، بينما كان المسلمون يتمنون الانتصار للروم لأنهم أهل كتاب مثلهم، فلما انتصر الفرس، ذهب مشركو قريش إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا " *لقد ظهر إخواننا من أهل فارس على*

إخوانكم من أهل الكتاب وإن قاتلتمونا لنظهرن عليكم" فجاءت النبوة الصادقة والقول الفصل والحق المبين في قوله تعالى **﴿ ألم، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنين بنصر الله، ينصر الله من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾**[1] ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله. لماذا يفرح المؤمنون بانتصار الروم على الفرس وهم ليسوا منهم، عقيدة أو جنسا أو أرومة ؟ لأنهم أهل كتاب مثلهم يؤمنون بالله الواحد الأحد الذي أنزل القرآن على عبده، فانتصار الروم وهم أهل كتاب هو انتصار لهم، لأنه بكلمة واحدة هو انتصار للإيمان على الكفر، والإيمان والكفر ليست لهما حدود جنسية أو وطنية أو جغرافية.

ولقد انصرف تفكير رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما استقر بالمدينة إلى تنظيم صفوف المسلمين من مهاجرين وأنصار وتوكيد وحدتهم وصهرهم في بوتقة الإسلام للقضاء على بقايا النعرات الجاهلية التي كانت تسود المجتمع العربي قبل الإسلام، ولسد الأبواب أمام المنافقين الذين كان همهم الوحيد هو الوقيعة بين الأنصار والمهاجرين. فكانت الأخوة الإسلامية التي دعا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعلها في حكم الإخاء بالدم والنسب، غير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أدرك أن ذلك لا يكفي، بل عليه أن يعمل على وحدة كاملة لـيثرب بمسلميها ويهوديها، وتقول كتب السيرة أن اليهود قد أحسنوا استقبال رسول الله صلى الله عليه وسلم في البداية، أملا في جلبه لصفوفهم ليتقووا به وبالمسلمين على النصارى الذين أجلوهم من فلسطين أرض الميعاد في

---

1. سورة الروم، الآيات 1، 2، 3، 4، 5.

نظرهم. وقد ردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم التحية بأحسن منها فوثق صلته بهم وبرؤسائهم بالمودة والأخوة في الله لأنهم أهل كتاب بل إنه كان صلى الله عليه وسلم يصوم يوم صومهم وكانت قبلته في البداية بيت المقدس التي هي قبلتهم. بعد هذا، كان لابد من تأكيد هذه الأوضاع بعهد أوكتاب، أو صحيفة كما سماها الرسول نفسه تضمن حرية العقيدة وحرية العمل وتؤكد الصداقة والمودّة والتحالف على السّراء والضرّاء بين مختلف سكان يثرب ويقول الدكتور حسين هيكل في كتابه "حياة محمد" : "أن هذه الوثيقة هي في اعتقادنا من الوثائق السياسية الجديرة بالإعجاب على مر الزمان " ثم يقول "إن هذا الطور من حياة الرسول لم يسبق إليه نبي أو رسول فقد كان عيسى وكان موسى وكان من سبقهما من الأنبياء يقفون عند الدعوة الدينية ثم يتركون لمن بعدهم من الساسة وذوي السلطان أن ينشروا الدعوة... أما محمد فقد أراد الله أن يتم الإسلام على يديه... وأن يكون الرسول السياسي والمجاهد والفاتح كل ذلك في سبيل الله".

وإذا رجعنا إلى هذه الوثيقة نجدها تنص على ما يلي : "...وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود وللمسلمين دينهم... ثم عدد قبائل اليهود... وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم... وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين وإن يثرب حرام جوفها على أهل هذه الصحيفة وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم. إن هذه الوثيقة التي كتبها رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ 14 قرنا لهي أكبر دليل على سماحة الإسلام وتسامحه وسعة أفقه وتقديسه للحرية، حرية الرأي وحرية العقيدة

وحرية الانتقال وحرية العمل، وثورة على الجريمة وعلى العدوان مهما كانت الأسباب وتعددت المنابع، والضرب بشدة على كل من يسعى في الأرض فسادا أو يخلخل المجتمع.

إن هذه الوثيقة لهي دستور كامل، نرجو لدعاة الحوار أن يرجعوا إليها لأنها تحدد بوضوح كيف يجب أن تكون علاقة الإنسان بالإنسان وإن تعددت مشاربهم واختلفت دياناتهم وتنوعت أرومتهم من احترام للحرية بجميع وجوهها واحترام للسلطة العليا والدفاع عن البلد الذي يأويهم ويحتضنهم، واحترام للجار وحق الجوار سواء أكان هذا الجار من ديننا وعرقنا أو كان غير ذلك، وتحريم الجريمة مهما كان نوعها أو مصدرها "وأن عليهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة دون العدوان والإثم".

لقد كانت غاية رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه الوثيقة أن يعيش الناس في وطنهم آمنين مطمئنين مهما كانت عقيدتهم، لا يخشون على أنفسهم ولا على أموالهم ولا علىأعراضهم، وأن يتمتعوا بالحرية في عقائدهم وأقوالهم، "وأن يتعاونوا على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان".

لكن اليهود هم اليهود في كل زمان ومكان، شيمتهم الغدر والخيانة. لقد وقعوا الوثيقة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ظنا منهم أنهم قد يستطعون ضمه إلى صفوفهم كما أشرنا سالفا، لكنهم قد هالهم سرعة انتشار الاسلام في صفوف العرب فخافوا أن تمتد شرارته إلى بني جنسهم وهم لا يعترفون بني من غير بني إسرائيل، فبدأوا يكيدون للرسول صلى الله عليه وسلم والإسلام وجهروا بالعدواة بعد أن أسلم عبد الله بن سلام

رضي الله عنه وهو من كبار أحبارهم وعلمائهم، ثم نزل الوحي بتحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام بيت إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، قال تعالى : **﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾**[1]. وكانت تلك القشة التي قصمت ظهر البعير كما يقول المثل العربي.

وفي هذا الوقت حل بالمدينة وفد نصارى نجران لإجراء أول اتصال بالإسلام وبمحمد صلى الله عليه وسلم، واجتمعت الأديان السماوية الثلاثة بالمدينة، هذه الأديان التي ما تزال حتى اليوم تتجاذب مصير العالم، واشتد النقاش وحاول كل من اليهود والنصارى أن يقوى جانبه بضم إبراهيم إليه، وهي محاولة مضحكة كما يقول سيد قطب رحمه الله، لأن إبراهيم سابق لليهود و كتابهم التوراة بقرون، وسابق على النصرانية و كتابها الإنجيل بأكثر من عشرة قرون، قال تعالى : **﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ها أنتم هؤلاء حاججتم ففيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون، ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكت كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين﴾**[2]. وقد حسم الحوار الذي جرى بين الأديان الثلاثة بقوله تعالى : **﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون﴾**[3]

---

1. سورة البقرة، الآية 144.
2. سورة آل عمران، الآيات 65- 66 -67.
3. سورة آل عمران، الآية 64.

هذه الدعوة الخالصة، المنصفة، الواضحة، البينة، الداعية إلى توحيد الله وإخلاص الربوبية والعبودية له وحده دون أن نشرك به صنما أو عبدا مهما كان هذا العبد ملكا أو رسولا أو نبيا. إنها دعوة تدعو إلى القدر المشترك بين الديانات السماوية كلها وهو التوحيد وهو القدر الذي لا يتحقق الإيمان إلاّ به.

ولكن هذه الدعوة لم تأت بثمارها المرجوة لأن النفس البشرية ليست روحا فقط وإنما هي روح ومادة، هذه المادة التي تتجسد في المال والجاه والألقاب، وقد صور ذلك أبو حارثة أكثر نصارى نجران علما ومعرفة إذ أدلى إلى أحد رفقائه باقتناعه بما يقول محمد صلى الله عليه وسلم فقال له رفيقه : "ما يمنعك إذا من اتباعه ؟ " فقال : " يمنعني ما صنع بنا هؤلاء القوم، شرفونا ومولونا وأكرمونا وقد أبوا إلاّ خلافه، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى".

ومع ذلك فإنّ هذه الندوة حققت شيئا قد يبدوا بسيطا ولكنه هام جدا، وهو اقتناع الطرفين بحرص محمد صلى الله عليه وسلم على الحق والعدل، وقد طلب وفد نصارى نجران منه أن يبعث معهم رجلا يحكم بينهم في أشياء اختلفوا فيها، كما طلب من قبل أحبار اليهود مثل ذلك !

وبعد، لقد رأينا كيف كان الإسلام ورسول الإسلام صلى الله عليه وسلم سبّاقا بالدعوة إلى الحوار بين أهل الكتاب في الوقت الذي كان فيها الصراع على أشده بين اليهود والمسيحيين بل إن القرآن ليأمرنا أن نجادل أهل الكتاب بالتي هي أحسن إلاّ الظالمون منهم قال تعالى **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن إلاّ الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾**[1] ،

1. سورة العنكبوت، الآية 46.

لكن هذه الدعوة من الإسلام ورسوله لم تقابل على مر الأيام إلاّ بالكيد والكذب والافتراء والازدراء، وفي كثير من الأحيان بالحرب والسلاح والإبادة، ونحن في الجزائر أكثر الشعوب الإسلامية التي اكتوت بكل ذلك طوال العهد الاستعماري، لقد كان المبشرون هم الذين يمهدون الطريق للعسكر، فتقاسما الأدوار لقهر هذا الشعب ومحو الإسلام على أرضه، وحتى بعد استعادة الاستقلال، فإن المبشرين م يألوا جهدا في محاولتهم اليائسة لتنصير هذا الشعب وأذكر هنا حادثة وقعت في 1973 وكان التبشير في أوج نشاطه عندنا وكانت تصل إلى وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية قناطير من الكتب والمنشورات التبشيرية والموجهة خاصة إلى أبنائنا في المدارس، فاستدعى الأخ مولود قاسم رحمه الله الذي كان وزيرا آنذاك لهذا القطاع، أسقف الجزائر وقال له بالحرف الواحد : " نحن وإياكم في خندق واحد أمام زحف الإلحاد والشرك وانحلال المجتمعات وتردي الأخلاق وخاصة في العالم المسيحي، وكان من المفروض أن نتعاون على مجابهة كل ذلك، ولكنكم أنتم مازلتم كما كنتم تتمنون تنصير هذا الشعب، ولم يكن من الأسف إلاّ الاعتذار وإنه ليس على علم بذلك ".

ولقد أشرت آنفا إلى أجهزة الإعلام التي تخوض ما شاء لها الخوض فيما سمي بالحوار وأودّ أن أذكر مثالا على ذلك، قناة تلفزيونية فرنسية هي "A.R.T.E." ، هذه القناة التي أدرجت في برامجها من السنة الماضية حصة من 5 حلقات تحت عنوان : " محمد رسول الإسلام" والمتتبع لهذه الحلقات إن لم يكن ذا علم وإطلاع على الإسلام وسيرة رسوله صلى الله عليه وسلم يراها جيدة، قد تخدم الإسلام ولكن الحقيقة عكس ذلك تماما فقد حشيت هذه الحلقات بالأكاذيب والافتراء والغمز واللمز في الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وأورد مثالين فقط على ذلك :

1. قال قائلهم في سورة البقرة- والمسلمون يعرفون قيمة هذه السورة وأنها تتضمن أكثر من ألف حكم شرعي- أنّ هذه السورة كانت أطول سور القرآن لأنها تضم عددا كثيرا من الآيات لايربط بينها أي رابط ولا ينتظم عقدها فلم يجد محمد أين يضعها فجمعها جميعا في سورة واحدة سماها سورة البقرة.

2. قالوا في غزوة بني قريضة إن محمدا ذبح أكثر من 900 رجل من اليهود في دقائق وسبى نسائهم وأولادهم، وأنّ محمد لذكائه لم يصدر هو الحكم وإنما كلف أحدا أصحابه بذلك فلما أصدر الحكم صاحبه قال له محمد أصدرت حكما يرضي الله والمؤمنين. ولم يشيروا ولو إشارة بسيطة عن سبب ذلك، عن خيانة بني قريضة لعهودهم التي مضوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن اتصالاتهم بالأعداء أثناء حصار المدينة في غزوة الخندق ليتعاونوا للقضاء على محمد والمسلمين، ولم يشيروا أيضا إلى أن ذلك الصحابي الذي أصدر الحكم هم الذين اختاروه لأنه كان حليفا لهم قبل الإسلام. ﴿ **كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا** ﴾ [1]

هذه أمثلة أدرجناها وهي قليل من كثير، مما يوجه إلى الإسلام والمسلمين من أهل الكتاب، أي من دعاة الحوار. ومع ذلك فإن ديننا يأمرنا بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن لأنه لا إكراه في الدّين، والعقيدة إيمان والإيمان بالإقناع وليس بالجبر والقهر.

---

1. سورة الكهف، الآية 5.

المراجع

1. تفسير بن كثير.
2. في ظلال القرآن لسيد قطب .
3. حياة محمد للدكتور حسين هيكل.
4. صورة من حياة الرسول د/ أمين دويدار.
5. نظرات في تاريخ الاسلام (مخطوط لمحمد الصغير بن لعلام).